غابر الاندلس وحاضرها

(١٨) ذكرى مؤلمة

مضت اعوام تلتها أعوام ، والنفس تتحدث بالارتحال إلى الاندلس المحبوبة ، تستنفض معالمها ومجاهلها ، وتستبطن معاهدها ومصانعها ، فتتدبر ، وتذكر ، وتستفيد ، وتفيد . ولما اتاحت لها الاقدار ، بلوغ تلك الامصار ، عرض لها ماكدّر صفو تلك الذكرى ، ذكرى التطواف في الأندلس بعد عزها للاعتبار ، بالدمى والاحجار ، واستنطاق الآثار ، واستقراء الاخبار ، لمعرفة عمل العرب في تلك الديار . .

اتفق نزولي غرناطة في اليوم الثاني من كانون الثاني ، اليوم الذي خرج فيه أبو عبد الله آخر ملوك بني الاحمر من عاصمة الاندلس ، وانتقلت احكامها إلى ايدي الغالبين من الاسبانيين ، والجرس يدوي في كنيسة الحمراء دوياً متواصلاً لامتساوقاً مدة اربع وعشرين ساعة ، احتفالاً بهذا اليوم الذي يعده أهل اسبانيا عامة وسكان غرناطة من بينهم خاصة من اسعد ايامهم الغر . احتفلوا به ضروب احتفال ، ومن جملة مظاهر سرورهم مأدبة ادبها يومئذ شيخ مدينة غرناطة في النزل الذي حللته في جوار الحمراء واسمه نزل « واشنطون » على اسم واشنطون محرر اميركا الشمالية وقد حضر المأدبة عظماء المدينة وشربوا وطربوا على ذكر استيلاء اجدادهم على آخر أرض احتلتها العرب من شبه جزيرتهم .

تذكرت ذاك اليوم المشؤوم ، وقد رفع الصليب الفضي على اعلى برج في الحمراء اشارة إلى ظفر الاسبان الاخير وخروج العرب من هذه الديار ، وقد اخذ ابو عبد الله بن الاحمر يتحفز في حاشيته ليخرج من الحمراء قبل ان يبغته العدو فيها ، ويتلفت وهو يجتاز جبل الثلج إلى غرناطة البديعة فيتنهد ويبكي ، وامه ترافقه وتقول له : لاتبك كالنساء ملكاً لم تستطع ان تحافظ عليه كالرجال .

كل سنة يبالغ القوم هنا بعيد غرناطة السنوي وقد احتفلوا به حتى اليوم اربعمائة وثلاثين سنة يتذكرون كل مرة نصرتهم على اعدائهم ويوماً تمت لهم فيه وحدتهم القومية

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

والدينية ، وقد مثلوا افظع مأساة ارتكبتها انفس متعصبة جاهلة ، وسلكوا للخلاص من مخالفيهم طرقاً بشعة ، لم يسلكها هؤلاء معهم يوم استصفوا ارضهم وحلوا ديارهم ، وهم في رفعة ومنعة ، وغبطة وسعة . يحشدون يوم الحفل رجالهم ونساءهم وذراريهم يحفزون ارواحهم ليوقظوها ، ويهيجون كوامن الصدور ليعتبروا بما وقع لهم في سالف العصور وليعلموا ان غلبة سنة ١٤٩٢ وان كانت من باب تسلط الجهل على العلم الا انها دلت على ان الثأر لاينسي ولو بعد ثمانية قرون .

وما كان اجدر بالعرب ان يعدوا آخر يوم خرجوا فيه من الاندلس من ايام البؤس ، المشتملة بالحزن ، المملوءة بالاستعبار ، يتناشدون فيه التعازي والمراثي . ويتطارحون حديث محنة مضت ، وتذكارها المؤلم لم يبرح يتجدد ، وشرر شرها لم يزل يتولد ويتوالد .

قيل ان اناساً من جالية الاندلس في بر العدوة ما برحوا إلى اليوم وقد انقضت أربعة قرون على مغادرتهم بلداً نبت لهم فيه العز ، واثمر المجد والسعد ، يخلف الوالد منهم لبنيه في جملة مخلفاته ، مفاتيح داره في الاندلس على امل ان يعود اولاده اليها ذات يوم ويفتحوها وينزلوها . تذكاران عده بعضهم في باب الهزل ، وقيده في سجل المستحيلات يحوي ولاجرم في مطاويه اجمل العظات ، واعظم التذكارات .

وحقيق بكل بلد للعرب فقد استقلاله ان يقيم كل سنة المآتم على ماحل به خصوصاً في البلاد التي يعبث فيها المتغلبون بمشخصات المغلوبين فان بعض العناصر الاوربية كالاسبان لم يكتفوا بطرد العرب من بلادهم بل يحاولون اليوم في الريف من بلادمراكش ان يجلوهم عنها بعد ان تأصلت كلمتهم فيها منذ ثلاثة عشر قرناً اقاموا خلالها مدنيات وانشأوا امجاداً لهم ودولات .

ان العرب الذين انشأوا من العدم مدنية الاندلس وقاموا في عصور الظلمات باعمال لايكاد يصدق الناظر اليها انها بنت قرائحهم ، وثمرة عقولهم ، لو لم تتناصر على ذلك اصدق الروايات ، لايعجزهم اليوم ، والعصر عصر النور ، ان يقوموا بمثل ما عمله اجدادهم ، لو نفس خناقهم ، وملكوا زمناً قياد انفسهم . بعض أهل الغرب اليوم حرب على الشرق وسوف تكون لهذا الغلبة للاحتفاظ بدياره وآثاره ، وامامه اسبانيا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

والبورتقال اللتان ثأرتا لنفسهما من مستعبديهما بعد قرون ولم تكونا في رقي العرب اليوم عدداً وعدداً ، ومضاءً وغناءً .

أضعف أمة اليوم في الغرب لا يبلغ عدد أهلها عدد أهل اقليم واحد من أقاليم العرب أو قطر من أقطارهم تتناغى الليل والنهار بآثارها وتتحدث بمفاخر أجدادها وتقدس أعمال نوابغها ورجالها ولا تنسى يداً للمحسن اليها ، ولا اساءة مجرم جانٍ عليها . العرب توغلوا يوم اشتد سلطانهم في جنوبي أوربا ونشأت لهم حكومات في شبه جزيرة ابيريا وجزيرة صقلية وسردانية فارتكبوا بذلك جناية في عرف أهل تلك الديار ، افليس من العدل أن تغتفر لهم هذه الهفوة أو الغزوة ، في جانب ما حملوه إلى من غلبوهم من ضروب المعارف والصناعات ، ومستحسن الآداب والاخلاق .العرب حملوا إلى الاندلس حضارة رائقة ، ونظاماً محكماً ، أحلوهما محل الفوضى والتوحش ، والسخافات والخرافات .

تود كل أمة اليوم مهما بلغ من تراجع الحضارة بينها أن تحكم نفسها بنفسها وتمثل مشخصاتها ومقدساتها ، فهل ينال العرب هذه الامنية وهم ليسوا دون بعض الامم الاوربية التي أخذت تتمتع الواحدة تلو الاخرى باستقلالها منذ قرن من الزمن فليس كل أمم أوربا بحضارتهم الانكليز والالمان والفرنسيس ولا كل الشعوب العربية على مستوى واحد في الحضارة والنور .

(١٩) جلاء المسلمين وتنصيرهم

لما استولى العرب المسلمون على الاندلس لم يكرهوا أحداً من سكان البلاد الاصليين على الدخول في دينهم ، بل أظهروا التسامح المقبول الذي يأمرهم به الدين الحنيف ، واطلقوا للناس حريتهم في ذلك ، فكان بعض الاسبانيين يدينون بالاسلام برضاهم .

فعهد العرب إذاً في الاندلس كان عهد تسامح وحرية ، لم تعهده من قبل ولا من بعد ولم يمنع عن بث الدين المسيحي إلا دعاته المفرطون ، ممن كانوا يقفون على أبواب المساجد والجوامع ، ويدعون المسلمين إلى دينهم ، ولا جوزوا أخذ مال أحد من أهل ذمتهم بل اكتفوا بجزية بسيطة ، وساووهم في جميع الأمور بأنفسهم .

مثال من لطف الحكم تعلمه الفاتحون من كتابهم فلم يحيدوا عنه قيد غلوة ، وهم في

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

عز سلطانهم ، والقول الفصل في الأرض كلها لهم ولقومهم مدة قرون طويلة .

هكذا فعل العرب في ابان قوتهم ، فانظر ماذا صنع الاسبان يوم قوي سلطانهم وكيف عاملوا العرب نقلاً عن شاهد العيان قال :

لما استولى صاحب قشتالة على مدينة بلّش عام اثنين وتسعين وثمانمائة ودخلت في ذمته جميع القرى التي تلي بلش وقرى جبل منتميس وحصن قمارش خرج أهل بلش من بلدهم مؤمّنين ، وحملوا ما قدروا على حمله من أموالهم فمنهم من جوّزه العدو إلى أرض العـــدوة ومنهم من أقام في بعض تلك القرى ومنهم من صار إلى أرض المسلمين التي بقيت بالاندلس .

ولما استولى الغالبون على مدينة مالقة وبلش وجميع الجهات الغربية لم يبق للمسلمين في تلك الناحية ملجأ . وفي عام ثلاثة وتسعين وثمانمائة خرج العدو نحو حصون الشرقية وكانت في صلحه فاستولى على تلك الحصون كلها وفي سنة ٨٩٤ خرج نحو حصن موجر فاستولى عليه وعلى الحصون القريبة منه ومن مدينة بسطة .

وكان صاحب قشتالة كثيراً ما يستعين بالمرتدين والمدجنين على قتال المسلمين يدلونه على عوراتهم ، ولطالما أمر بهدم المدن والقرى التي يستولي عليها يبني بانقاضها مسوّرات في بضعة أيام كما فعل في غرناطة . ومن جملة الشروط التي شرط أهل غرناطة على ملك قشتالة أن يؤمنهم في أنفسهم ونسائهم وصبيانهم ومواشيهم ورباعهم وجناتهم ومحارثهم وجميع ما بأيديهم ولا يغرمون إلا الزكاة والعشر لمن أراد الاقامة ببلدة غرناطة . ومن أراد الخروج منها يبيع أصله بما يرضاه من الثمن لمن يريده من النصارى والمسلمين من غير غبن ، ومن أراد الجواز لبلاد العدوة بالغرب يبيع أصله ، ويحمل أمتعته ، ويحمله في مراكبـه إلى أي أرض أراد من بلاد المسلمين من غير كراء ولا شيء يلزمه لمدة ثـلاث سنين ، ومن أراد الاقامة من المسلمين بغرناطة فله الامان على نحو ما ذكر وكتب لهم بذلك كتاباً ، وأخذوا عليه عهوداً ومواثيق في دينه مغلظة . وبعد ذلك أخلى المسلمون مدينة الحمراء كما أخلوا غرناطة ودخلها الاسبانيون . ولما سمع أهل البشرة ان أهل غرناطـة دخلت تحت ذمة النصارى أرسلوا بيعتهم إلى ملك الروم ودخلوا في بيعته فلم يبق للمسلمين موضع بالأندلس .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ولقد سرح صاحب قشتالة للمسلمين بالجواز إلى الساحل فصار كل من أراد الجواز يبيع ماله ورباعه ودوره فكان الواحدمنهم يبيع الدار الكبيرة الواسعة المعتبرة بالثمن القليل وكذلك يبيع جنانه وأرض حرثه وكرمه وفدانه بأقل من ثمن الغلة التي كانت فيه فمنهم من اشتراه منه المسلمون الذين عزموا على الدجن ومنهم من اشتراه منه النصارى وكذلك جميع الحوائج والامتعة ومن المسلمين من طمعوا في عناية ملك النصارى بهم فاشتروا أموالاً رخيصة وأمتعة وعزموا على المقام في الاندلس .

ثم ان الملك أمر الأمير محمد بن علي بالانصراف من غرناطة إلى قرية اندرش من قرى البشرّة فارتحل بعياله وحشمه وأمواله واتباعه ثم ظهر له أن يصرفه فبعث المراكب تأتي لمرسى عذرة واجتمع معه خلق كثير ممن أراد الجواز فركب الأمير محمد ومن معه في تلك المراكب حتى نزلوا مدينة مليلة ففاس من عدوة المغرب .

وأخذ ملك الاسبان بعد حين ينقض الشروط التي اشترطها عليه المسلمون ، وشرع يفرض عليهم الفروض ، وثقلت عليهم المغارم ، وقطع لهم الأذان ، وأمرهم بالخروج من مدينة غرناطة إلى الارباض والقرى وبعد ذلك دعاهم إلى التنصر وأكرههم عليه وذلك سنة أربع وتسعمائة فدخلوا في دينه كرهاً وصارت الاندلس كلها نصرانية . وامتنع بعض أهل الاندلس من التنصر كأهل قرية ونجر والبشرّة واندرش وبلفيق فاحاط بهم ملك قشتالة وقتل رجالهم وسبى نساءهم وأخذ صبيانهم وسلب أموالهم ونصّرهم واستعبدهم . وامتنع أناس في غربي الاندلس من التنصر وانحازوا إلى جبل وعر منيع فلما امتنعوا عليه وقاتلهم فلم ينل منهم منالاً أعطاهم الامان على أن يجوزهم لعدوة المغرب مؤمّنين على أن لا يسرح لهم شيئاً من أموالهم غير الثياب التي كانت عليهم وجوزهم لعدوة المغرب كما شرطوا ولم تقم للاسلام والمسلمين بعد ذلك قائمة .

قال السلاوي : التزم أهل غرناطة طاعة صاحب قشتالة لما استولى عليها سنة سبع وتسعين وثمانمائة والبقاء تحت حكمة ولما نقض الشروط وهي سبعة وستون شرطاً عروة عروة ومنها اقامة شريعة المسلمين على ما كانت ولا يحكم على أحد منهم إلا بشريعتهم وأن تبقى المساجد كما كانت والأوقاف كذلك إلى أن آل الحال لحملهم على التنصر فتنصروا عن آخرهم بادية وحاضرة وكان أهل الاندلس كثيراً ما يهاجرون إلى بلاد

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الاسلام غير أن عامتهم كانوا قد تخلقوا باخلاق العجم (غير العرب من الاسبان) واثر فيهم ذلك أثراً ظاهراً لطول صحبتهم لهم ونشأة أعقابهم بين أظهرهم إلى أن كانت سنة ست عشرة والف فهاجر جميع من لم يتنصر منهم إلى بلاد المغرب وغيرها وفي خلال ذلك منع العرب من التكلم بالعربية [١]

قال المقرّى : كان النصارى بالاندلس قد شددوا على المسلمين بها في التنصر حتى انهم أحرقوا منهم كثيراً بسبب ذلك ومنعوهم من حمل السكين الصغير فضلاً عن غيرها من الحديد وقاموا في بعض الجبال على النصارى مراراً ولم يقيض الله لهم ناصراً إلى ان كان اخراج النصارى اياهم أعوام سبعة عشر وألف فخرجت ألوف بفاس وألوف اخر بتلمسان ووهران وخرج جمهورهم بتونس وخرج طوائف بتطاوين وسلا والجزائر وعمروا القرى واغتبط بهم الناس وتعلموا حرفهم وقلدوا ترفهم [٢] ووصل جماعة منهم إلى القسطنطينية وإلى مصر والشام وغيرها من بلاد الاسلام .

. . .

(١) لما انقرضت دولة العرب وبقي بعضهم فيها حافظوا على دينهم مع شدة الاضطهاد ولكنهم نسوا أو ألزموا باهمال اللغة العربية وصارت اللغة القشتالية اي الاسبانية ملكة متوارثة فيهم فكتبوا علومهم بها لكن بحروف عربية وسموها (الخمياده — Aljamiado) ووجه التسمية ان العرب يسمون كل ما ليس بعربي أعجمياً وجرى على منوالهم الاندلسيون فكانوا يسمون اللغة القشتالية أي الاسبانية باسم «الاعجمية» ثم انتقلت هـذه اللفظة إلى اللغة الاسبانية بغير حرف العين لعدم وجود ما يقابله في اللغات الافرنجية فصارت الكلمة مقابل هذا الصوت (الاجاميا) ولما كان أهل اسبانيا يقلبون أغلب الجيمات خاآت قالوا (الاخاميا) أو (الخميا) ورسموها بحروفهم هكذا بعد أن سكنوا حركة اللام (Aljamia) وعلامة النسبة عندهم do توضـــع في آخر الكلمة فلذلك قالوا (Aljamiado) أي الاعجمي . (السفر إلى المؤتمر)

(٢) قال ابن أبي دينار ان المهاجرين من الاندلس إلى تونس سنة ١٠١٧ — ١٠١٨هـ كانوا خلقاً كثيراً فاوسع لهم عثمان داي في البلاد وفرق ضعفاءهم على الناس واذن لهم ان يعمروا حيث شاؤوا فاشتروا الهناشير وبنوا فيها واتسعوا في البلاد فعمرت بهم واستوطنوا=

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

هذا مارواه مؤرخو العرب واليك ماقاله مؤرخو الافرنج في هذه الكارثة : جاء في التاريخ العام للافيس ورامبو : صحت النية سنة ١٦٠٩ على نفي العرب Les morisques وكانوا يؤلفون عنصراً خاصاً عصى على التمثل ولم ينزل عن مشخصاته ومميزاته على كثرة مابذل فيليب الثاني من الجهد فوقع الاتفاق على التذرع بكل مايمكن لاهلاكهم فعمدت الحكومة إل الخروج عن القانون بدعوى قيامها بما فيه سلامتها ولانجاز وحدة اسبانيا وانقاذ البلاد من أولئك المحالفين سراً للاتراك والانكليز والفرنسيس على حين اشتدت شوكة قرصان البحر من البربر وهنري الرابع يضع خططه السرية فحاذرت اسبانيا العواقب وقام رئيس اساقفة بلنسية يدعوا إلى طرد العرب مدعياً ان منهم تسعين الفاً يستطيعون حمل السلاح وإذا أغار على اسبانيا عدوها تسوء حالها ويحرج موقفها . وإذ كان القشتالي كسلاناً فقيراً كان يكره من العرب منافستهم الشديدة له التي اكسبتهم غنىً بفضل اقتصادهم نادى رئيس الاساقفة ان مما يخشى منه ان يحتكر هؤلاء العرب جميع ثروتنا ويؤدوا بالمسيحيين إلى العدم والشقاء . وقال غيره انهم يدخرون على الدوام وعلمهم عبارة عن سرقتنا فهم الدودة التي تقرض اسبانيا . وعلى هذا كان من التعصب الديني ان قضى على العرب . ولما تعذر تنصيرهم رأوا أن الطريق الوحيد الى الخلاص من خطرهم المادي والمعنوي يكون بطردهم فقوي نفوذ رجال الكهنوت على ممثلي طبقات الاشراف في البلاد وكانت عقول هؤلاء أكثر استنارة يحرصون على الاحتفاظ بالعرب في بلادهم لانهم عاملون ينفعونهم بعملهم ويدرون عليهم ربحاً كبيراً فقاموا ينكرون الشدة التي ارتأى ان يعمد اليها المجلس والحبر نديم الملك فلم يلبث بقايا العرب في بلنسية والاندلس ومرسية وقشتالة وارغون وكتلون ان غربوا (ايلول

= في عدة اماكن وبنوا أكثر من عشرين بلداً فصار لهم مدن عظيمة وغرسوا الاشجار ومهدوا الطرقات بالكراريط للمسافرين وصاروا يعدون من أهل البلاد . وذكر السيد حسن حسني عبد الوهاب من علماء تونس في رسالة بالافرنسية ذكر فيها أصول التونسيين انه دخل تونس في القرنين ونصف القرن الذي انتهى بها جلاء العرب عن الاندلس لا أقل من مئة الف اندلسي وان الطبقة المتمدنة الغنية من الاندلسيين نزلت مدينة تونس واختلطت باهلها وقلدهم هلوك بني حفص فيها خطط القضاء والادارة والتعليم .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

١٦٠٩ تموز ١٦١٠) وحملوا إلى افريقية حيث هلك عدد كبير منهم وفار أربعون الفاً منهم فاعتصموا في جبال بلنسية فذبحوا أو استعبدوا ففقدت اسبانيا بهم على اقرب تقدير من خمسمائة الى ستمائة الف من أحسن العاملين في الزراعة والصناعات وعجلت بذلك خرابها وبعملها هذا ابتاعت وحدتها الدينية بالثمن الغالي وفرح الرأي العام الاسباني اذ ذاك بما تم في هذا الشأن وعدوه من أعظم الأعمال التي قامت في عهد ملكهم ومنهم من رأوه نعمة من السماء ! وقال مؤرخ اسباني : يالسعادة ملك توفق إلى أن يعمل هذا العمل من طرد العرب . ولكن الامم خارج اسبانيا عدوا عمل الاسبانيين من تغريب العرب جنوناً بل وصفه ريشليو بانه افظع عمل بربري ذكره تاريخ القرون .

وفي التاريخ العام أيضاً أن خضوع العرب في اسبانيا قد اقلق ملوك الكاثوليك (١) وفتح امامهم مسألة تطالوا إلى حلها بما عهد في عنصرهم من المضاء الوحشي وبما اشتهرت به قرون التدين من التعصب وعدم التسامح فرأوا ان بعض مئات الالوف من الاسرائيليين والمسيحيين يكثرون سواد المخالفين وهم كثير نسلهم لايعلم ماذا يكون منهم . وهم على ماهم فيه من النمو يغتنون ويعملون فاشتد القلق من قوم يخالفون الاسبانيين بحضارتهم بل يعجبون بها ولهم ميول وعقائد وعواطف تخالف ماعليه الجمهور فبدأوا بالاسرائيليين حتى ان ميل لوكاس اعظم سادات قشتالة ذبحه سكان جيان أمام المذبح في الكنيسة سنة ١٤٧٣ لاتهامه بالعطف على الاسرائيليين .

وكان من مذابح سنة ١٣٩٠ ان اضطر الوف من اليهود في معظم مدن قشتالة ان يتنصروا ومنهم من دام على نصرانيته ومنهم من رجع الى دينه الأصلي أو كان ظاهره مسيحياً، وقلبه وعاداته قلب اسرائيلي وعاده . وكان منهم طبقة غنية محترمة . وفي سنة ١٤٨١ وقع تخييرهم بين التنصر والجلاء فآثروا الثاني إلا أن ديوان التفتيش لم تأخذه بهم رحمة كما لم يشفق على المسلمين سنة ١٤٩٢ فشقوا عصا الطاعة بما رأوه من تعصب

(١) يريد ملوك اسبانيا فان ملك اسبانيا لايزال إلى اليوم يدعى في الرسميات صاحب العظمة الكاثوليكي : Sa Majesté' Catholice

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الكردينال كسيمنس [١] الذي عمد إلى تنصيرهم بابشع الطرق من الحبس والشدة وأخذ الأولاد ولما فرغ صبرهم وعمدوا إلى السلاح نقض ما أعطوه من الشروط يوم تسليمهم غرناطة ولئن فضلوا أن يتنصروا على أن يهجروا بلادهم فانهم لم يسلموا أيضاً واشتد ديوان التفتيش في مراقبتهم وكان الاسبانيون يرون في عمل هذا الديوان الديني سلامة عنصرهم وسلامة دينهم ولذلك كانوا شاكرين لعمله مهما قسا وغرم .

وقال ريناخ : لم تكتف اسبانيا بما قامت به من المظالم باسم الدين واحراق البشر وقتلهم وتعذيبهم بل رأت أن توهم الناس أنه لا سبيل إلى قيام وحدتها إلا بنفي اليهود سنة ١٤٩٢ ونفي العرب (١٦٠٩) فسار مئات الألوف منهم يهجرون بلادهم وهلك منهم في الطرق عشرات الألوف فحرمت اسبانيا من أحسن العاملين فيها وفقدت تجارها الماهرين وأطباءها الحاذقين وقد قتل في اسبانيا وحدها بفعل ديوان التفتيش الديني نحو مئة ألف انسان على الأقل ونفي منها مليون ونصف وبذلك خربت مدنية تلك البلاد الجميلة .

وقال سيديليو : كان طرد العرب من اسبانيا من موجبات تأخرها كما وقع لمدينة نانت يوم طرد منها من كان مخالفاً للكثلكة فأضرّ ذلك بالصناعة الفرنساوية وقد تمكن الكردينال كسيمنس من تعوير جميع آثار المسلمين وأمر باحراق ثمانين ألف مخطوط عربي في ساحات غرناطة .

(٣٠) سقوط الاندلس

كان العرب في الاندلس في جهاد دائم مع أعدائهم منذ وطىء طارق بن زياد وموسى ابن نصير أرضها ، ورفعوا علم الامويين على ربوعها ، ودفعوا باعدائهم إلى أقصى الشمال . يسكن الجلالقة وغيرهم حيناً إذا وجدوا العرب مستمسكين بعروة الوحدة ، ومتى شاهدوا اختلاف أمور العرب أو آنسوا من بعضهم ميلاً إليهم أو نزوعاً إلى الاحتماء بهم لينالوا

(١) هو مرشد ايزابيلا الكاثوليكية ملكة قشتالة حكم اسبانيا بعد موت فرديناند الكاثوليكي مات سنة ١٥١٧ وقد كان من أعظم من قضوا على العرب ومدنيتهم على مامرّ بك في الفصول السابقة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

من خصومهم يحملون حملات منكرة ، ويقاتلون أعداءهم بكل ما فيهم من قوة ولذلك قلت غارات الاسبانيين والبرتقاليين على البلاد التي نزلها العرب على عهد دولة بني أمية أوائل المئة الخامسة وان كان الثوار لم ينقطعوا تماماً في الداخل عن مجاذبة الامويين حبل السلطة .

ثم فسدت عصبية هذه الدولة من العرب واستولى ملوك الطوائف على الاندلس واقتسموا خطتها وتنافسوا بينهم وتوزعوا ممالك الدولة وانتزا كل واحد منهم على ما كان في ولايته وشمخ بانفه وبلغهم شأن العجم مع الدولة العباسية فتلقبوا بألقاب الملك ولبسوا شارته واستبد كل واحد منهم بجانب من الاندلس ودعى نفسه ملكاً فتلقبوا بالناصر والمنصور والمعتمد والمعتضد والمظفر وأمثالها حتى نعى عليهم ابن شرف عملهم بقوله المأثور

مما يزهدني في أرض أندلس ... أسماء معتضد فيها ومعتمد
ألقاب مملكة في غير موضعها ... كالهر يحكي انتفاخاً صولة الاسد

أو كما قال ابن حزم : فضيحة لم يقع في الدهر مثلها أربعة رجال في مسافة ثلاثة أيام في مثلها يسمى كل واحد منهم بامير المؤمنين ويخطب لهم في زمن واحد أحدهم في اشبيليه والثاني بالجزيرة الخضراء والثالث بمالقة والرابع بسبتة . وأصبح العرب والبربر في خصام مستديم والجميع في خلاف مع أهل المغرب الاقصى من الجنوب وفي حروب مع بقايا الامم الاسبانية والبرتقالية من الشمال والغرب .

سقطت الاندلس لتشتت أهواء أمرائها وأصبح بعضهم «ولاهم له سوى كأس يشربها وقينة تسمعه ، ولهو يقطع به أيامه » واسترسلوا إلى اللذات ، وركنوا إلى الراحات ، واغفلوا الاجناد ، واحتجبوا عن الناس ، ولم يعودوا ينظرون في الملك ، ومنهم من قتل كبار قواده ، ووسد الأمور إلى الضعاف ، فكثرت المظالم والمغارم ، وكثر الثوار مرات بشرق الاندلس وغربها من القضاة وغيرهم ، وهكذا تبدد شمل الجماعة «فضبط اشراف العمالات أزمة أمورهم ، وركبوا ظهور غرورهم ، فاتوا من ذلك بكل شنيعة » .

قال ابن حزم : كانت طرطوش وسرقسطة واقراغه ولاردة وقلعة أيوب في يد بني هود وبلنسية في يد عبد الملك بن عبد العزيز والثغر اي ما فوق طليطلة من جهة الشمال في يد بني رزين وطليطلة في يد بني ذي النون وقرطبة في أيدي أبناء جهور

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

واشبيلية في يد بني عباد ومالقة والجزيرة الخضراء في يـــد بني برزال من البربر والمرية في يد زهير العامري ثم ابن صمادح ودانية واعمالها والجزائر الشرقية (الباليار) في يد مجاهد العامري وبطليوس وبابرة وشنترين ولشبونة في يد بني الافطس وأصبح كل امرىء وما اختار من الالقاب والاسماء حتى ان المستعين لما جلس على عرش الخلافة قـــال للناس اجمعين : ارتعوا كيف شئتم ، وارتسموا بما احببتم من الخطط ، فتسمى بالوزارة في ايامه منفردة ومثناة (أي الوزير وذي الوزارتين) اراذل الدائرة ، واخابث النظار ، فضلاً عن زعانف الكتاب والخدمة .

قسمت الاندلس بعد سقوط الامويين ، إلى تسع عشرة مملكة منها قرطبة واشبيلية وجيان وقرمونة والغرب والجزيرة الخضراء ومرسية وبلنسية ودانية وطرطوشة ولاردة وسرقسطة وطليطلة وباجة ولشبونة وغيرها . ولقد كان يخشى بعد هذا التفرق وتراجع امر الدولة الاموية ان تسقط الاندلس دفعة واحدة ولكن قدر الله ان يكون ملوك الجلالقة وقشتالة وغيرهم مشتتة كلمتهم متفرقة اهواؤهم وقيض للبلاد دولة اخرى جديدة قوية جاءتها من الجنوب أي من المغرب الأقصى وهي دولة المرابطين فافرج بها عـــن العرب بعض الفرج فجاء يوسف بن تاشفين وقاتل الادفنش سنة ٤٨٠ وانتصر عليـــه وكانت البلاد الى البوار بسبب استيلاء النصارى عليها واخذهم الاتاوة من ملوكها قاطبة .

ثم عادت أحوال الاندلس فاختلت اختلالاً مفرطاً آخر دولة أمير المسلمين علي بن يوسف أوجب ذلك « تخاذل المرابطين وتواكلهم ، وميلهم إلى الدعة ، وايثارهم الراحة وطاعتهم النساء ، فهانوا على أهل الجزيرة ، وقلوا في اعينهم ، واجترأ عليهم العدو ، فاستولى على كثير من الثغور المجاورة لبلادهم . » . حتى جاء الموحدون كما كان المرابطون من قبل بدعوة عقلاء الاندلس وامرائها وقد كانوا يدعونهم إلى نصرتهم بضروب الفصاحة من الشعر والنثر ويستنفرون الناس من العدوة .

لما اشتد الحصار على أهل اشبيلية سنة ٦٤٥ صنع ابراهيم بن سهل الاسرائيلي قصيدة يستنفر بها الغزاة من العدوة ويستنصر بامراء العرب وذلك إذ كان العدو عليها قال فيها :

يامعشر العرب الذين توارثوا ... شيم الحمية كابراً عن كابر
ان الاله قد اشترى أرواحكم ... بيعوا وهنئكم وفاء المشتري

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أنتم أحق بنصر دين نبيكم ... وبكم تمهد في قديم الاعصر

إلى أن قال :

والخيل تضجر في المرابط عرة ... الا تجوس حريم رهط الاصفر
كم نكروا من معلم ، كم دمروا ... من معشر ، كم غيروا من مشعر
كم أبطلوا سنن النبي ، وعطلوا ... من حلية التوحيد صهوة منبر

إلى أن قال :

عند الخطوب النكر يبدو فضلكم ... والنار تخبر عن ذكاء العنبر
لو صور الاسلام شخصاً جاءكم ... عمداً بنفس الوامق المتحير
ولو انه نادى النصير لخصكم ... ودعاكم يا أسرتي يا معشري

نعم كانت التفرقة بين أمراء العرب في الاندلس مما علم أعداءهم كيف يتحدون ليدفعوهم عن أرضهم كما وقع للعرب في صقلية سنة ٤٣١ فانهم بعد أن دفعوا عنها جيوش البيزنطيين والنورمانديين والروسيين والفاكريكيين قسموا صقلية إلى امارات صغرى فانشأوا جمهورية في بلرم وأخرى في سرقوزة وكان ذلك من أكبر الدواعي في زوال سلطانهم . لا جرم أن ضعف الوازعين الديني والمدني من ميل القوم إلى الراحة والدعة وضعف الأخلاق الحربية فيهم وانتشار الفوضى في أحكامهم كان منه أن تأذن الله بذهاب ريحهم لا كما يدعي بعض العامة من أن رواج سوق الشعر كان السبب في زوال الاندلس وتبديد شمل أهلها فقد كان الشعر عندهم من جملة المسليات لأن للعرب عامة غراماً به والأدب وسيلة إلى العلوم كافة والعرب أمة أولعت منذ عرف تاريخها بالفصاحة والبلاغة .

ومن تدبر سير الحروب بين العرب والاسبان والبرتقاليين في المدة التي ارتفعت فيها أعلام المسلمين على الاندلس يدرك أن القوتين قوة الغالب والمغلوب كانت متعادلة في أكثر الأيام ولكن تكتب الغلبة للفريق الذي كان جنده منظماً أحسن من جند خصمه وكان بعض خلفاء الأندلس يعتمدون على جنودهم من الرقيق كالصقالبة وغيرهم ويعفون رعاياهم من التجند على حين كان زعماء الاسبان يصرفون أيام شبابهم في تعلم الضرب بالسيف

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

والرمح لقتال اعدائهم [١] والعرب لايحوزون ان يستبدلوا العادات الحربية باعمال الزراعة ومافي المدينة الراقية من التمتع والهناء فكان الناس في الممالك النصرانية يضطرون إلى الخدمة في الجندية ويرافق الاشراف ملوكهم إلى الحرب مع اتباعهم .

أما العرب فلا يخرج احدهم الا إلى الجهاد وإذا خرج فيكون خروجه على الاغلب متكارهاً لمدة معينة فكانت اوضاع الاسبان حربية محضة فكون لهم بها الغلبة في القتال اما في البحر فكان العرب اشد بأسا واقوى اساطيل ولهم في كل فرضة من فرض الاندلس سفن معدة وقد اقاموا لهم دور صناعة في المرية وطرطوشة وطرخونة وكانت معامل اشبيلية وقرطاجنة تخرج كل سنة سفناً جديدة تمخر في عرض البحار .

استولى الملوك من بني الاحمر قرنين ونصف قرن كما تقدم لنا الكلام في ذلك وهم الذين استولوا على بقايا مجد العرب بعد ان انتصر سلطانهم سنة ٦٦٣ هـ على الفرنج واسترجع منهم اثنين وثلاثين بلداً من جملتها اشبيلية ومرسية ثم عاد العدو واخذ بمخنقهم ولكن لم ينل منهم لاجتماع كلمتهم في الداخل على الجملة . ولما دب الهرم في جسم دولتهم وقوي الاسبان باتحاد ايزابيلا ملكة قشتالة وفرد يناند ملك الاراغون أي باتحاد المملكتين الرئيستين في الشمال تأذن الله بفناء الاندلس فلم يبق امامهم الا التسليم والاستسلام وفي ذلك كان هلاكهم وبوارهم .

(٢١) جبل طارق وطنجة

كان جبل طارق الذي نسب إلى طارق بن زياد فاتح الاندلس وهو المكان الذي

(١) وصف لسان الدين امة قشتالة بقوله : وحال هذه الامة غريب في الحماية الممزوجة بالوفاء والرقة ، والاستهانة بالنفوس في سبيل الحمية . عادة العرب الاول . واخبارهم في القتال غريبة من الاسترجال ، والزحف على الاقدام ، اميرهم ومأمورهم ، والجثو على الارض ، أو الدفن في التراب ، والاستظهار في حال المحاربة ببعض الالحان المهيجة ، ورماتهم قسيهم عربية نجافية ، وكلهم في دروع ، ولا لجام عندهم ، والتقهقر مقدار الشبر ذنب عظيم وعار شنيع ، ورماتهم يسبقون الخيل في الطراد ، وحالهم في باب التحلي بالجواهر وكثرة آلات الفضة غريب اه .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

بلغه في جيشه اواخر المئة الاولى بايدي العرب مدة استيلائهم على الاندلس فلما دالت دولتهم عاد إلى الاسبان ولبث في حكمهم إلى القرن الثامن عشر واستولى الانكليز عليه في سنة ١٧٠٤ واحتفظوا به رغم محاولة الاسبان في سنة ١٧٠٤ ـ ١٧٧٩ بمعاضدة الاسطول الفرنسوي للاستيلاء عليه فلم يستطع الاسطولان الفرنساوي والاسباني تخليص هذا الحصن من ايدي الانكليز .

يعلو جبل طارق عن سطح البحر ٤٢٥ متراً وهو متصل مع القارة الاوروبية بسهل من الرمل فيه بطائح ويشرف على المدينة . وقد جعل الانكليز فيه قلعة شحنوها بالمدافع فجاءت من احصن مافي العالم من الحصون. فهو في الحقيقة قطعة من ارض اسبانيا ولكنه انكليزي الحكم والنظام. يشرف على البحرين المحيط والمتوسط ويأخذ بخنق السفن الغادية والرائحة بين القارات الثلاث اوربا واميركا وافريقية .

يبلغ سكان جبل طارق اليوم ٢٢ الفاً ماعدا الحامية الانكليزية واهلها مزيج من شعوب اوربا واميركا وآسيا وافريقية وكذلك ابنيتها مزيج من طراز الابنية عند الامم الكثيرة واللغتان الشائعتان هنا الاسبانية والانكليزية . ولا يحق اليوم لغير الانكليزي التبعة ان يقتني ملكاً في هذا المرفأ الضيق النطاق ويراقب الاجانب فيه مراقبة شديدة والمدينة كلها عبارة عن شارع واحد ضيق بُني في الغالب منذ قرنين وعلى مقربة من جزيرة طريف وهي اشبه بقلعة كبيرة مشرفة على البحر .

جثت جبل طارق من غرناطة وانتهيت بالجزيرة الخضراء آخر عمل اسبانيا والمسافة بين هذه الجزيرة وجبل طارق بضع دقائق يجتازها المجتاز على ظهر سفينة .

وعلى بضعة اميال من جبل طارق ترى مدينة طنجة قائمة على البحر في بر العدوة من ثغور الغرب الاقصى واول ارض افريقية يقع نظر الخارج من القارة الاوربية عليها فينتقل السائح انتقالاً فجائياً من مدنية راقية إلى مدنية مشعثة منحطة وليس بين القارتين الاوربية والافريقية الا مجاز صغير كان العرب يسمونه الزقاق .

اغتنمت فرصة انتظار الباخرة الانكليزية التي تسافر من جبل طارق إلى مارسيليا في يومين فزرت طنجة وطوفت في ارجائها وسكانها اليوم نحو اربعين الفاً فيهم كثير من الاسبانيين والبرتقاليين والطليان والفرنساويين وهي من المدن التي استعمرها الفينيقيون

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فيما مضى ولا تزال محتفظة بطرازها الشرقي على كثرة ماتداول عليها من الامم بعد الاسلام فقد استولى عليها البرتقاليون سنة ١٤٧١ م والانكليز سنة ١٦٦٢ وحاصرها الفرنسيس سنة ١٨٤٤ وبقيت منذ ذاك الحين في يد المراكشيين وهي الآن مشاع لكل الدول أو تحت حمايتهم ويتنازعها الفرنسيس والاسبان كما يتنازعون على السبق في حماية بلاد الغرب الاقصى . ويقيم فيها كثير من معتمدي الدول والسلاطين المخلوعين من امراء المسلمين في الغرب الاقصى امثال مولاي عبد العزيز ومولاي الحفيظ .

نعم ان المراكشيين مازالوا في هذا الثغر وماوراءه من البلدان على تصلبهم في عاداتهم رغم التيار الشديد الهاجم عليهم من اوربا وهم منها على ثلاث ساعات بحراً لايفصلهم عنها الا بحر الزقاق وبين طنجة والجزيرة الخضراء اثنا عشر ميلاً « وهو اضيق موضع فيه واوسع موضع فيه نحو ثمانية عشر ميلاً » قال الفقيه المرادي المتكلم القيرواني بعد خلاصه من بحر الزقاق ووصوله إلى مدينة سبتة :

سمعت التجار وقد حدثوا بشدة اهـــوال بحر الزقاق
فقلت لهـم قربوني اليـــه انشفه من حـــر يوم الفراق
فلمـــا فعلت جرت ادمعي فعاد كما كان قبل التلاق

(٢٢) علم المشرقيات في اسبانيا

كان على اسبانيا وتاريخها مرتبط بتاريخ العرب ثمانية قرون ان تكون اول دولة غربية تعنى باللغة العربية ولكنها تعد من الاواخر لان الارتقاء يتبع بعضه بعضاً ولاتتفق امة الا مما عندها ومع هذا حدثنا التاريخ ان اول مدرسة[1] عربية انشئت في طليطلة اوائل القرن الحادي عشر ومن هذه المدرسة نشأت تربية الاسبانيين على مناحي العرب وفي سنة ١١٣٠ انشأ رئيس اساقفة طليطلة مدرسة للتراجمة في هذه المدينة وبها رسخت اللغة العربية والافكار العربية في اسبانيا المسيحية . وكان من نتائج وقعة العقاب ان حررت اسبانيا من رق العبودية للمسلمين وادرك ملوك قشتالة ان ليس من العقل مقاطعة الماضي القديم وانهم في حاجة بعد إلى ان يتعلموا من معلميهم القدماء ومنافسيهم الالداء

(١) مجلة المقتبس المجلد الرابع .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

من العرب فحاول الفونس العاشر ان يعمل لاسبانيا المسيحية ماعمله العرب لاعلاء شأن الاسلام وذلك بالاخذ باحسن مافي الحضارتين ومزجهما بالحضارة الاسبانية فأسست سنة ١٢٥٤ في اشبيلية مدرسة عامة لاتينية عربية وحفظ لمدينة مرسية رونقها العربي الصرف واستدعى إلى عاصمته العلماء من جميع الملل والنحل ليؤسس مدرسة طليطلة الثانية وقوامها اختيار احسن المعارف النافعة وهي اقرب إلى التسامح من المدرسة الاولى إذ كانت تجمع إلى التقاليد اللاتينية الحضارة العربية والعلم العبراني .

كان لليهود يد طولى في نقل العلوم من العربية إلى اللاتينة لان المرابطين والموحدين الذين استولوا على الاندلس بعد الامويين كانوا إلى التعصب . بددوا كتب الفلسفة واحرقوها ليرضوا بذلك العامة والفقهاء ولولا تراجم الاسرائيليين لضاع كثير من اوضاع مدنية العرب في الاندلس .

ثم بدا لرجال الدين من الاسبان ان يسعوا في نشر دينهم بين المسلمين فاخذوا يعنون باللغة العربية ليتعلمها الرهبان ويجادلوا مخالفيهم بالبرهان فوضع احد الدومنيكيين اول معجم عربي باللغة الاسبانية سنة ١٢٣٠ وفي سنة ١٣١١ – ١٢ امتدح البابا اكلمنضس الخامس في احد المجامع الدينية من انشاء درس لتعلم العربية في مدرسة صلمنكة وفي اواسط القرن الثالث عشر كان الدومنيكيون مثال الغيرة في نشر اللغات الشرقية بين ابناء رهبنتهم ومنها العربية وانشأ صاحب اراغون مدرسة لتعليم اللغات الشرقية في ميرامار وانشأ المجمع الديني في طليطلة ينفق على طغمة من الرهبان مؤلفة من ثمانية اشخاص انقطعوا لدراسة العربية وعلى هذا ظلت الجمعيات الدينية ولاسيما الفرنسيسكانية إلى القرن الثامن عشر في اسبانيا هي القائمة بدعوة المستشرقين إلى درس آداب الشرق ولغاته وتاريخه .

ولم تنل مدرسة صلمنكة شهرة طائلة في اوربا حتى غدت احدى المراكز العلمية الاربعة باريز واكسفورد وبولون الا انها بتأثير العلم العربي اقامت على اساس معقول تعليم العلوم الطبيعية والطب ولم يكن في مدرسة صلمنكة في اواخر القرن الثالث عشر غير خمس وعشرين حلقة للتدريس منها حلقة لليونانية واخرى للعبرانية وثالثة للعربية فاصبحت في القرن السادس عشر سبعين حلقة فيها سبعة آلاف طالب .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ولما اعلن الاسبانيون الحرب على جنسية العرب ومدنيتهم ودينهم ضعفت العناية باللغة العربية ولم يكتف القوم باستصفاء جميع الجوامع وجعلها كنائس بل اخذوا ينصّرون المسلمين بالاكراه وفي سنة ١٥٠١ ـ ٢ طردوا من مملكتي قشتالة وغرناطة كل من ظلوا محافظين على الاسلام ولم يعد للدومنيكيين والفرنسيسكانيين من حاجة لتعلم العربية ليتمكنوا من مجادلة الفقهاء وتخلوا عن علومهم لانها افسدت افكارهم وزهد المسيحيون في علوم المسلمين وقام في اذهانهم انها خطر عليهم .

صدر امر الكردينال كسيمنس سنة ١٥١١ بعد ان احرق في ساحات غرناطة كمية من الكتب العربية ان تباد كتب العرب من بلاد اسبانيا عامة فتم ذلك في نصف قرن ولولا المترجمات منها إلى العبرية واللاتينية لبادت مدنية العرب من تلك البلاد . واخذ ديوان التفتيش الديني على نفسه ابادة كل اثر للعرب وما كان متنصرة المغاربة الذين دانوا بالنصرانية مكرهين ليستطيعوا ابداء اسفهم إلا سراً وفي الكتب العربية المكتوبة بالعجمية أي المكتوبة بحروف اسبانية دليل على تعلق اولئك المتنصرة بقديمهم .

وفي سنة ١٥٥٦ منع فيليب الثاني متنصّرة المسلمين من استعمال اللغة العربية وارادهم على ان تنزع من اسمائهم التراكيب العربية وعن اجسامهم الالبسة الشرقية ليمزجهم بزعمه في سواد ابناء المذهب الكاثوليكي ثم طردوا على عهد فيليب الثالث وكان عددهم نحو مليون نسمة على صورة قاسية سخيفة ولم يبق من الحضارة العربية واللغة العربية في اسبانيا غير ذكراهما وزهد القوم في القرنين السابع عشر والثامن عشر في تعليم العربية في اسبانيا اللهم الا على طريقة افرادية وغدا الاطلاع على العربية نقصاً ولربما اتهم من يتعلمها بالالحاد بعد ان كان اهل الطبقة العليا من الاسبان ايام عز العرب يحلون باقوال فلاسفة العرب كلامهم ويدرسون الفلسفة العربية درس مستبصر مستفيد لادرس ناقد عنيد ويعدون الاطلاع على الآداب العربية من امارات الظرف والكياسة .

وعلى هذا لم يبق لمدرسة الفرنسيسكان في اشبيلية من اساليب تعلم العربية الا اثر ضئيل واراد شارل الثالث ان يعيد إلى اسبانيا عهد الآداب العربية فاستدعى لذلك رهباناً موارنة من سورية ليعلموا الاسبانيين لغتهم الاصلية الثانية ويحق للنصف الثاني من القرن الثامن عشر ان يباهي باساتذة متمكنين من اسرار العربية في اسبانيا .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ولما ادخل الاصلاح إلى الكليات القديمة في اواخر النصف الاول من القرن التاسع عشر عادت العربية تدرس في جامعات اسبانيا رسمياً ولما استلمت الحكومة الاسبانية سنة ١٨٥٧ زمام اصلاح التعليم من دون رجال الدين أو الملك أو الاشراف ربحت اللغة العربية حتى كادت تعود اليها حياتها التي كانت لها في شبه جزيرة اسبانيا من القرن الثاني عشر إلى القرن الخامس عشر فاخذت معرفة اللغات والآداب العبرية والعربية تدخل من تلقاء نفسها في قائمة دروس التعليم العالي واخذ المستعربون ينتفعون من المخطوطات العربية المحفوظة في مكتبة الاسكوريال ومكتبة الامة ومكتبة المجمع العلمي التاريخي ومن المخطوطات العربية المكتوبة بحروف عبرية المحفوظة في كاتدرائية طليطلة. دع مكتبة خزائن كابانكوس وكودراوريبرا وآسين وغيرهم من رجال المشرقيات.

والعربية اليوم تدرس رسمياً في كلية مجريط وغرناطة وبرشلونة وصلمنكة وبلنسية واشبيلية وغيرها ولكن التدريس فيها مهمل والمدرسون غير كفاة الا في العاصمة وبعض الولايات وقد نشر المستشرقون من الاسبان منذ اواخر القرن التاسع عشر كتباً عربية كثيرة متعلقة بتاريخ الاندلس وتراجم رجاله وبعض العلوم التي اشتغلوا بها ومنها الجيد واكثره مملوء بالاغلاط والتحريف وهو دون ما نشره الهولانديون والجرمانيون والبريطانيون والظليان من هذا القبيل من حيث الصحة والاتقان .

وانت ترى ان الاستشراق العربي كان الدين هو الداعي اليه كما كان في معظم بلاد اوربا ثم امتزج الدين بحب المدنية ثم امتزج كلاهما باسم الاستعمار ولكن المحصول في شبه جزيرة ابيريا أي اسبانيا والبرتقال قليل . وفي جامعة لشبونة عاصمة البرتقال درس عربي اليوم ومدرسه الاستاذ لوبيس الذي نشر بعض الكتب العربية فهو المرجع في البرتقال اليوم كما ان الاستاذ آسين مرجع الاسبان في مجريط وكلاهما عضو في المجمع العلمي العربي .

بقي مبحثان ضاق النطاق عن نشرهما وهما (اسبانيا بعد العرب) و (البرتقال بعد العرب) ننشرهما في كتاب على حدة مع مقالات الاندلس وغيرها

محمد كرد علي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net